في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي

طرز سامراء الزخرفية وتأثرها بزخارف الموصل

أ. د. أحمد قاسم الجمعة
كلية الآثار / جامعة الموصل

لقد تميزت مدينة سامراء في الحضارة العربية الإسلامية بطرزها المعمارية والفنية، على الرغم من عمرها القصير الذي لم يبلغ نصف قرن منذ أن بناها الخليفة المعتصم عام (٢٢١هـ/٨٣٦م) واتخذها عاصمة للدولة العباسية بدلاً من بغداد حتى تركها الخليفة المعتمد عام (٢٧٩ هـ/٨٩٢م) عائداً إلى بغداد[١].

الذي يعنينا من كل ذلك الزخارف التي اكتشفها الآثاريون في أنقاض مبانيها السكنية ولا سيما قصورها: منها قصر الجوسق الخاقاني، وقصر بلكوارا، وقصر الحويصلات[٢]، وَتَأَثُّرِها بما يماثلها من زخارف الموصل في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.

فقد صنف علماء الآثار زخارف سامراء إلى ثلاثة طرز من حيث: نوعية عناصرها، ومميزاتها الفنية، وأسلوب تنفيذها. على الرغم من اختلاف بعض الآثاريين والدارسين في ترتيبها[٣].

فطراز سامراء الأول: غلبت على عناصره أوراق العنب الخماسية، والعناصر الكأسية، وكيزان الصنوبر والزهريات، والمراوح النخيلية المحورة عن الطبيعة، ومن مميزاته الفنية وضع العناصر داخل تقسيمات هندسية تؤطرها سلاسل من عناصر ما يسمى بحبات اللؤلؤ أو المسبحة، واقتضاب الأرضيات الفاصلة بين العناصر. ونفذت زخارفه بواسطة الحفر الرأسي العميق[٤] (الرسم ١).

أما الطراز الثاني فغلبت في زخرفته الأوراق اللوزية والكأسية والجناحية وزهرة اللوتس المحورة والمراوح والأوراق النخيلية الثلاثية والخماسية. وامتازت بالتحوير الكبير والتجسيم والبساطة ووجود العيون بين أنصالها والثقوب في وسطها، والاقتضاب الشديد لأرضياتها وتحولها إلى ما يشبه الأخاديد الضيقة الحلزونية. ونفذت عناصره بواسطة الحفر الذي يجمع ما بين الحفر الرأسي والمشطوف[٥] (الرسم ٢).

في حين أن الطراز الثالث تمثلت في زخارفه العناصر والأوراق اللوزية والكأسية والجناحية والنخيلية الثلاثية والخماسية والخطوط المنسكرة، ومن أهم مميزاته الفنية الهيئة التجريدية للعناصر نتيجة التحوير الشديد عن الطبيعة، وتلاصقها مع بعضها بعد انعدام الأرضيات تماماً، وقطاعاتها المحدبة وجوانبها المشطوفة التي أضفت عليها شيئاً من الظلال والتجسيم. ونفذت الزخارف بواسطة الحفر المائل المشطوف الذي نتج – حسب رأي معظم الآثاريين والعلماء – بفعل صب الجص بالقوالب المخصصة للعناصر ووضعها على المساحات المعدة لها[٦] (الرسم ٣).

ولقد عدّ المتخصصون هذه الطرز نوعاً من الأساليب الفنية التي تدرجت عن بعضها نوعاً من التطور على الرغم من اختلافهم في تسلسلها، وعدّوها ثورة فنية وأساساً لزخارف الرقش العربي الذي دعاه الأوربيون بـ (الأرابسك)[٧] دون التحري عن كيفية تطورها في مدة زمنية قصيرة وتتبع أصولها. والذي تساءل عن ذلك من الأوربيين حاول رد أصول تلك الطرز إلى فنون أجنبية سابقة للإسلام كالطراز الفرثي والساساني وحتى الذي رجح اعتبارها ذات أصول محلية ردها إلى الطرز المحلية القديمة السابقة للإسلام كالطراز البابلي[٨] انطلاقاً من تجريد العرب والمسلمين من نتاجاتهم الحضارية أو التقليل من شأنها. ونحن لا نميل إلى كون طرز سامراء تطورت عن بعضها؛ لأنه من غير الممكن حدوث ذلك بمدة زمنية لم تبلغ نصف قرن، وإنما يعزى ذلك إلى تعدد الأيادي الفنية التي نفذت تلك الطرز وتعدد

الأقطار التي وفدت منها. فقد أورد الباحثون أن المعتصم كان قد استقدم العمال المهرة والفنيين من مختلف أقطار الدولة العربية الإسلامية عند تشييد سامراء[٩].

وبفعل جولاتنا الميدانية في مدينة الموصل، وبحوثنا لفنونها التشكيلية، واعتماد الدراسة المقارنة اتضح لنا أن طرز سامراء الزخرفية تعود بأصولها إلى الموصل. فباستثناء طراز سامراء الأول الذي يعد امتداداً للطراز الأموي وبالذات في بلاد الشام[١٠] اتضح أن الطرازين الثاني والثالث وحتى بعض سمات الطراز الأول لزخارف سامراء تماثل إلى حدٍ كبير زخارف الموصل المنفذة على العديد من عناصرها المعمارية والفنية من الرخام التي ترقى إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهو التاريخ المعاصر لتاريخ سامراء.

فميزة تضاؤل الأرضيات بين العناصر وتحولها إلى ما يشبه القنوات المنحنية والحلزونية، وقصر العروق التي تصلها أو انعدامها (الرسم ٢)، وكذلك ظاهرة الحزوز التي تؤطر بعض العناصر في طراز سامراء الثاني[١١]، وجدناها في زخارف كوشات أقواس المحاريب الرخامية في كل من: مزار الست أم كلثوم[١٢] (اللوحة ١)، وجامع الجويجاتي (الرسم ٤) ومزار الإمام عبدالرحمن (الرسم ٥) والمحراب المنقول إلى كنيسة مار توما، كما أن تلاصق العناصر وتكميل بعضها للبعض الآخر التي تمثلت في الطراز الثالث لزخارف سامراء[١٣] (الرسم ٣) وجدت في زخرفة باطن محراب جامع الجويجاتي (الرسم ٤). فضلاً عن ظاهرة تقسيم السطوح إلى مناطق هندسية تشغلها العناصر الزخرفية وتؤطرها سلاسل من عناصر حبيبات المسبحة التي وجدت في طرز سامراء ولا سيما الأول والثالث[١٤] (الرسم ١) وجدناها في القطعة الزخرفية الرخامية في فناء كنيسة مار أشعيا (اللوحة ٢) وزخارف صدر محراب مزار الست أم كلثوم (اللوحة ١) وزخارف قوس مسجد الشيخ شمس الدين. كما وأن ظاهرة العيون بين أنصال العناصر والأوراق، والقيعان المجوفة في أسفل بعضها التي ميزت طرز سامراء الثلاثة[١٥] (الرسم ١) فقد تمثلت في معظم العناصر في محاريب الموصل المذكورة (الرسم ٤، ٥، اللوحة ١).

وبخصوص العناصر الزخرفية الغالبة في طرز سامراء ولا سيما الثاني والثالث وجدناها بأجلى مظاهرها في زخارف محاريب الموصل الآنفة الذكر، فضلاً عن محراب جامع العمرية من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي[١٦] وأهمها:

١. عنصر الورقة الجناحية ذات القطاع المجوف التي تمثلت في الطراز الثاني والثالث لزخارف سامراء[١٧] (الرسم ٦) وجدت في زخرفة كوشة قوس محراب مزار الإمام عبدالرحمن (الرسم ٧) وزخرفة باطن محراب جامع الجويجاتي (الرسم ٨)، وزخرفة صدر محراب مسجد الشيخ شمس الدين (الرسم ٩).
ويرى البعض أنها تطورت عن الأجنحة المستعلمة في تيجان الأكاسرة الساسانيين[١٨] ولكن من المرجح أنها تطورت عن عناصر الأجنحة الأشورية لأن التأثيرات المحلية أقوى من التأثيرات الأجنبية.

٢. عنصر الورقة الكأسية التي وجدت في طرز سامراء الزخرفية الثلاثة ولا سيما الطرازين الثاني والثالث بهيئات مختلفة[٢٠] (الرسم ٣) وجدت هي الأخرى في زخرفة صدر محراب جامع الجويجاتي (الرسم ٥).

٣. العنصر الشبيه بزهرة اللوتس الذي تمثل في طرز سامراء ولا سيما في الطرازين الثاني والثالث[٢١] (الرسم ١٠)، وجدناه في الموصل ضمن زخارف كوشة قوس محراب مزار عبدالرحمن (الرسم ١١) وزخرفة باطن قوس محراب جامع الجويجاتي (الرسم ١٢) وزخرفة كوشة قوس محراب مار توما (الرسم ١٣).
والراجح أن هذا العنصر متطور عن زهرة الشقائق التي تكثر في شمال العراق والموصل بالذات في فصل الربيع ثم استعملها الآشوريون عنصراً زخرفياً، أو أنه عنصر انتقل إلى الفن الآشوري من مصر عن طريق الحروب وامتد إلى زخارف الموصل في العصور العربية الإسلامية[٢٢].

٤. عنصر الورقة اللوزية ذات الرأس المدبب والقاع المجوف في أسفلها الذي وجد بكثرة في الطراز الثالث لسامراء[٢٣] (الرسم ١٤) وجدناه ماثلاً في النطاق الزخرفي الذي يفصل باطن قوس محراب عبدالرحمن عن صدره (الرسم ١٥).
والراجح أن هذا العنصر قد تطور عن الورقة الجناحية التي سادت الطراز المذكور في سامراء.

٥. عناصر الأوراق النخيلية معرقة الأنصال التي وجدت في الطرازين الأول والثاني في سامراء[٢٤] (الرسم ١٦) شاعت مثيلاتها في الموصل بقيعان مجوفة، ولا سيما في زخارف محرابي مزار عبدالرحمن (الرسم ١٧) وجامع الجويجاتي (الرسم ١٨).

٦. عنصر الطوق الهندسي الذي كثر شيوعه في طراز سامراء الثالث ويتكون من انكسار الخط عدة مرات وبوضعيات مختلفة منها الأفقية والمائلة مكونة زوايا حادة ومنفرجة[٢٥] (الرسم ١٦) وجد في الموصل ماثلاً على الحطة المستطيلة الواقعة بين أرجل أقواس محراب مزار عبدالرحمن وتيجان أعمدته (الرسم ١٩).

٧. عنصر الورقة البوقية ذات ألأنصال الثلاثة التي تتخللها العيون حيث تمثلت بكثرة في طراز سامراء الثالث[٢٦] (الرسم ٢٠) وجدت هي الأخرى ضمن زخارف كوشة قوس محراب مزار الست أم كلثوم (اللوحة ١).

٨. التيجان والقواعد الكأسية للأعمدة تمثلت في أعمدة بعض المحاريب المسطحة التي تمثل طراز سامراء الثالث[٢٧] (الرسم ٣) وجد ما يماثلها في تيجان وقواعد أعمدة مزار الإمام عبدالرحمن وجامع الجويجاتي (الرسم ٥).

وأهم ميزة اتصفت بها زخارف سامراء، ولا سيما زخارف الطراز الثالث هو تنفيذها بواسطة الحفر المشطوف (المائل)[٢٨]، وهو من الأساليب المبتكرة التي لم نعهدها إلاّ في زخارف العناصر المعمارية والفنية التي أوردنا ذكرها في مدينة الموصل[٢٩]. فضلاً عن زخارف العصر الطولوني بمصر المتأثرة بطرز سامراء[٣٠]، وبعض زخارف الأنطقة الجدارية في مدينة بلد (أسكي مول) شمال الموصل، وعدد من تيجان الأعمدة من مدينة الرقة[٣١].

وهذا التماثل الفني العجيب بين زخارف الموصل وزخارف سامراء في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي من حيث: المميزات، والعناصر الفنية، وأسلوب التنفيذ ينم عن وجود تأثيرات متبادلة بينهما، ولكن نرجح أن زخارف سامراء هي التي تأثرت بزخارف الموصل وليس العكس استناداً إلى العاملين الآتيين:

أولاً. العمق الحضاري لمنطقة الموصل التي اتضحت معالمه منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وبلغ نضجه في العصر الآشوري الحديث[٣٢]، ولا سيما الناحية الزخرفية التي امتدت إلى العصر الإسلامي في الموصل لتواصل تطورها وثرائها، بينما سامراء تعدّ مدينة إسلامية ناشئة لم يبلغ عمرها نصف قرن، ولم يكن لها عمق حضاري باستثناء سامراء ما قبل التاريخ (٦٠٠٠-٥٠٠٠) قبل الميلاد الذي انقطع تواصلها الحضاري بفعل تقادم الزمن واندثارها. وأن العمال والصناع الذين نفذوا طرز سامراء الزخرفية وفدوا إليها من البقاع الإسلامية الأخرى المماثلة طرزها لطرز سامراء، ولم ينطبق ذلك إلاّ على مدينة الموصل ونسبياً على بعض الزخارف الجدارية المكتشفة من مدينة بلد (أسكي موصل) الواقعة شمال مدينة الموصل[٣٣].

ثانياً. إن زخارف الموصل نفذت على مادة الرخام وهي صعبة التنفيذ والتقليد ولا سيما زخارف الطراز الثالث المنفذ بواسطة صب الزخارف في قوالب على وفق اعتقاد معظم المتخصصين[٣٤]، في حين نجد أن زخارف سامراء نفذ معظمها على الجص. وبطبيعة الحال فإن التقليد على الجص أسهل بكثير من التقليد على الرخام.

أما عدم تطرق الآثاريين والدارسين إلى زخارف الموصل المنفذة بواسطة الحفر المشطوف وعناصرها ومميزاتها الفنية ليس غفلاً منهم، وإنما يعزى إلى عدم معرفتهم بها لدى دراستهم لزخارف سامراء. ونحن أول من تطرق إليها أثناء جولاتنا الميدانية في مدينة الموصل ودراستنا لآثارها الفنية والعمارية، فضلاً عن دراسة كتابات الأستاذ يوسف ذنون على محرابي جامع العمرية، ومزار الست أم كلثوم[٣٥].

الهوامش والمراجع

(١) سلمان، عيسى وآخرون: العمارات العربية الإسلامية في العراق، تخطيط مدن ومساجد، بغداد ١٩٨٢م، جـ١، ص ٩٥، ١٠٣.

(٢) هرتسفلد، آرنست: تنقيبات سامراء، حلية جدران المباني في سامراء وفن زخرفتها، ترجمة علي يحيى منصور، بغداد ١٩٨٥م، جـ١، ص ١٥ ؛

(٣) لقد اعتمد معظم الآثاريين والدارسين الترتيب الذي ثبتناه لاحقاً لطرز سامراء ومنهم الدكتور فريد شافعي بيد أن بعضهم اعتبر الطراز الثالث هو الأول ومنهم العالم الألماني المكتشف لسامراء الإسلامية هرتسفلد.

(٤) هرتسفلد: المرجع السابق، ص ٢٢١، شكل ٢٩٢، زخرف ٢٦٦؛ ديماند (م.س): الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد موسى ومراجعة وتقديم أحمد فكري، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٩٣؛ حميد، عبدالعزيز وآخرون: الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٧٥.

(٥) شافعي، فريد : مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد١٦، مايو ١٩٥٤م، القاهرة ١٩٥٤م، ص ٥٨؛ حميد: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٦) حميد: المرجع السابق، ص ٥٩؛

Rice (D.T.), Islamic Art, Thames and Hadson1965, P.34, PL. 26.

(٧) الأرابسك: هي الزخارف النباتية المحورة بحيث ابتعدت عن طبيعتها لتأدية الأغراض الجمالية. وقد أطلق الأسبان عليها اسم (Ataurique) لأن أصل اشتقاقها في الغالب من الكلمة العربية (التوريق): (مرزوق عبدالعزيز: الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، بغداد ١٩٦٥م، ص ١٨٣).

(٨) هرتسفلد: المرجع السابق، ص٢٢.

(٩) علام، نعمت إسماعيل: فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٤٧؛ سلمان: المرجع السابق، ص٩٥، ٩٦.

(١٠) حميد: المرجع السابق، ص ٧٥.

(١١) شافعي: المرجع السابق، ص ٥٨؛ الجمعة، أحمد قاسم: محاريب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الأتابكة ٦٦٠هـ، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى جامعة القاهرة سنة ١٩٧١م، ص ٧٤.

(١٢) ذنون، يوسف: الخط العربي في الموصل، موسوعة الموصل الحضارية، جامعة الموصل، الطبعة الأولى، الموصل ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ٢٢٣، لوحة ٢.

(١٣) هرتسفلد: المرجع السابق، ص ٢٢.

(١٤) شافعي: زخارف وطرز سامراء، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، م١٣، سنة ١٩٥١م، القاهرة ١٩٥١م، ص ٢.

Creswell (K. A. C.), A Short Account of Early Moslim Architecture, Penquin and Pellican Book 1958, P. 289.

(١٥) هرتسفلد: المرجع السابق، ص ٥٩، شكل ١٦، زخرف ٥٢ و ص٢٣١، شكل ٣٠٢، زخرف ٢٧٤.

(١٦) ذنون: المرجع السابق، ص٢٢٢.

(١٧) مديرية الآثار القديمة: حفريات سامراء للموسم (١٩٣٦-١٩٣٩م)، الريازة والزخارف، بغداد ١٩٤٠م، جـ١، ص ٨٥.

(١٨) هرتسفلد: المرجع السابق، ص٥٩، شكل ٦٧؛ شافعي: المرجع السابق، ص ٢٨ شكل ١٤.

(19) Parrot (A.), Ninavah and Babylon, France 1961, P. 155, Fig. 188.

(٢٠) هرتسفلد: المرجع السابق، ص ١٠٣، شكل ١٣٢ زخرف ١٣٤و ص ١٥٠، شكل ٢٠٢ زخرف ١٨٩.

(٢١) المرجع نفسه، ص ٦٢، شكل ٧٠، زخرف ٦٢.

(٢٢) الجمعة: محاريب مساجد الموصل، ص ٩٨.

(٢٣) هرتسفلد: المرجع السابق، ص١٠٣، شكل ٥٧.

(٢٤) المرجع نفسه، ص١٣٣، شكل ١٧٢، زخرف ١٧٢، و ص ٢١٩، شكل ٢٨٩، زخرف ٢٦٤.

(٢٥) المرجع نفسه، ص١٣٣، شكل ١٧٢، زخرف ١٧٢.

(٢٦) المرجع نفسه، ص٥٦، شكل ٦٢، زخرف ٤٩، ٥٦.

(٢٧) المرجع نفسه، ص٤٤، شكل ٢٦، زخرف ٢٠.

(٢٨) حميد: المرجع السابق، ص٧٦.

(٢٩) الجمعة: محاريب مساجد الموصل، ص ٧١، ٩٩، ١١٩.

(٣٠) هرتسفلد: المرجع السابق، ص ٧١، شكل ٨٢؛ علاّم: المرجع السابق، ٦٣.

(٣١) ديماند: المرجع السابق، لوحة ٥١، ٥٢.
(٣٢) أحمد، نزار عبداللطيف: النحت البارز في عهد الملك آشور بانيبال، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى أكاديمية الفنون الجميلة بجامعة بغداد سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، لوح ١٧ ب، ٢٩، ٤١.
(٣٣) النعيمي: الزخارف والكتابات على الحجر في مدينة بلد (أسكي موصل)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة بغداد، سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، عينة ٢، ٤، ١٠.
(٣٤) ديماند: المرجع السابق، ص ٩٣.
(٣٥) ذنون: المرجع السابق، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

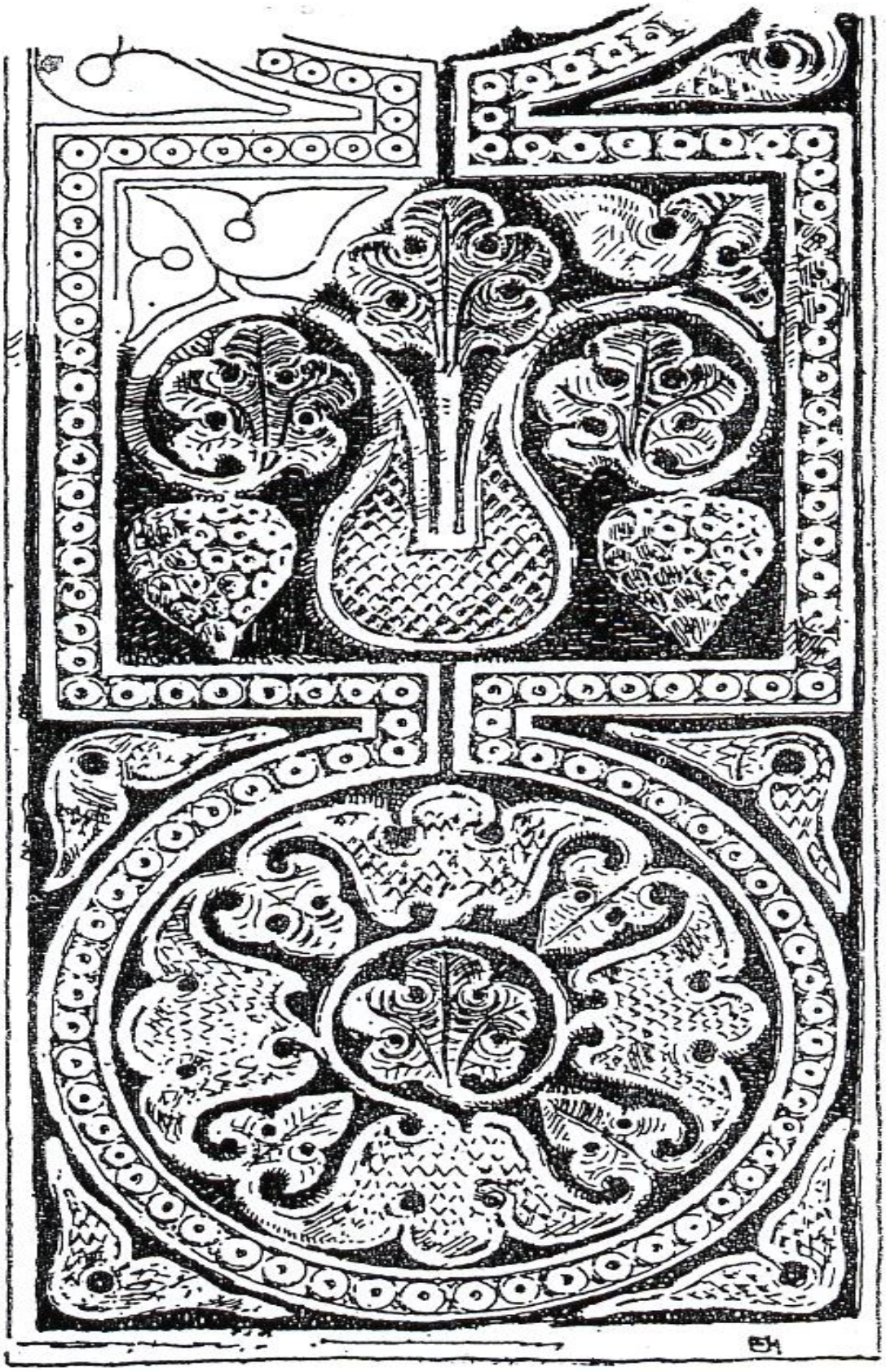

الرسم (١) من زخارف طراز سامراء الأول عن (هرتسفلد)

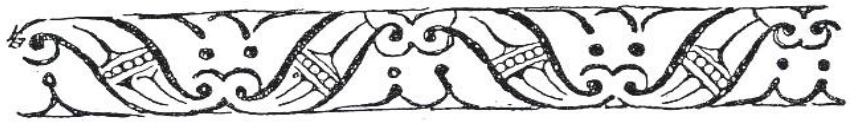

الرسم (٢) من زخارف طراز سامراء الثاني عن (هرتسفلد)

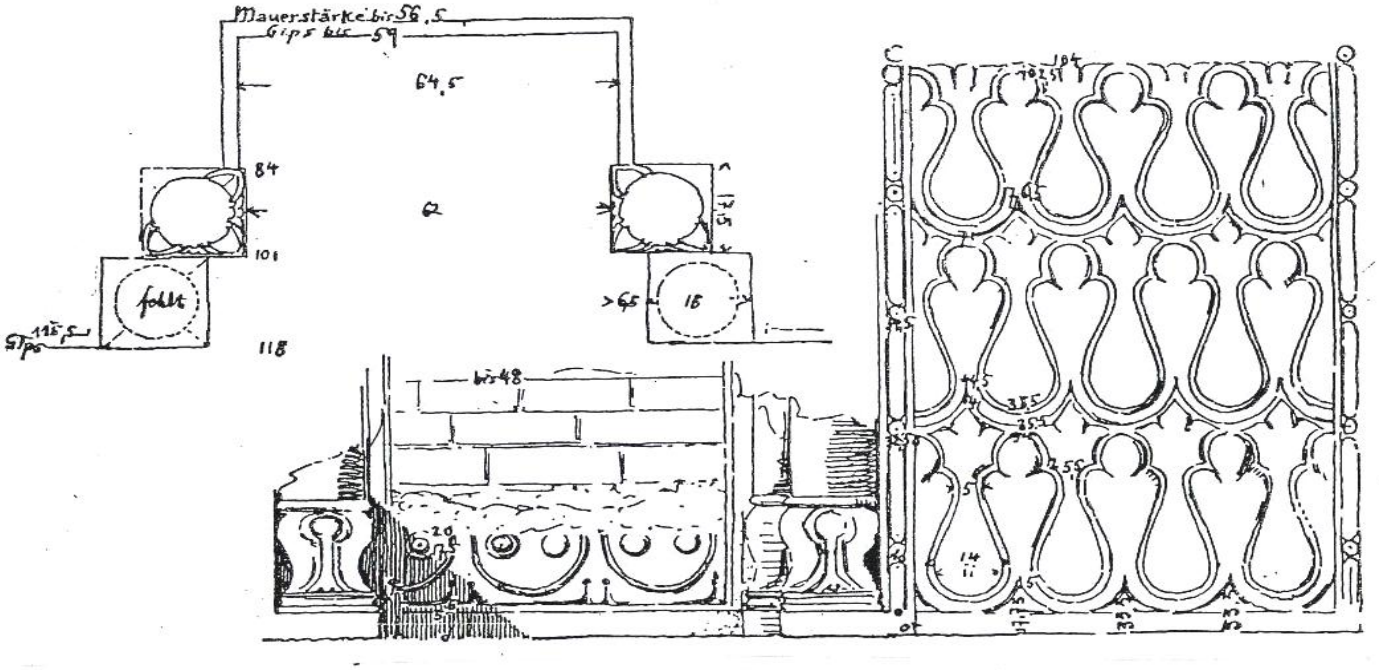

الرسم (٣) من زخارف طراز سامراء الثالث عن (هرتسفلد)

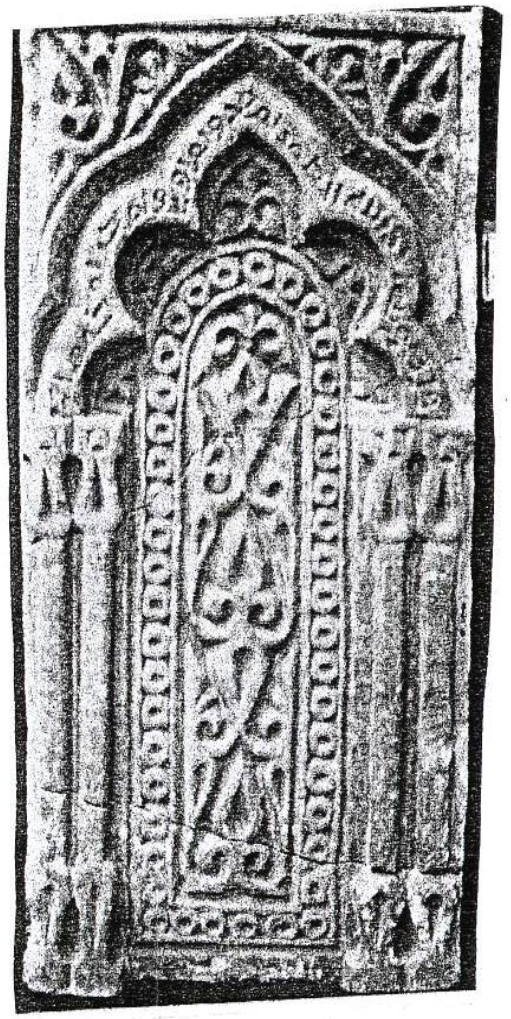

اللوحة (١) محراب مزار الست أم كلثوم في الموصل
حوالي القرن (٣هـ/ ٩م) تصوير (يوسف ذنون)

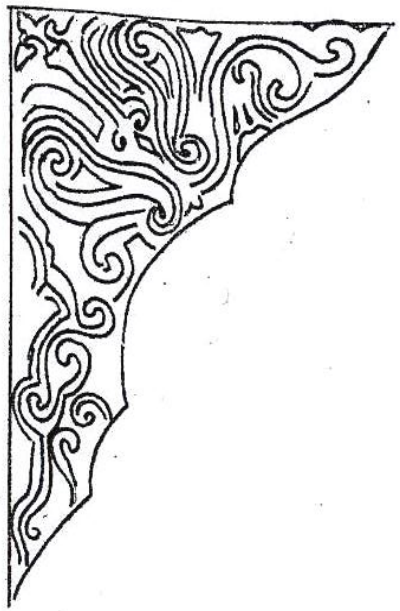

الرسم (٥) زخارف كوشة قوس محراب مزار عبدالرحمن
حوالي القرن (٣هـ/ ٩م) تخطيط د.أحمد قاسم الجمعة

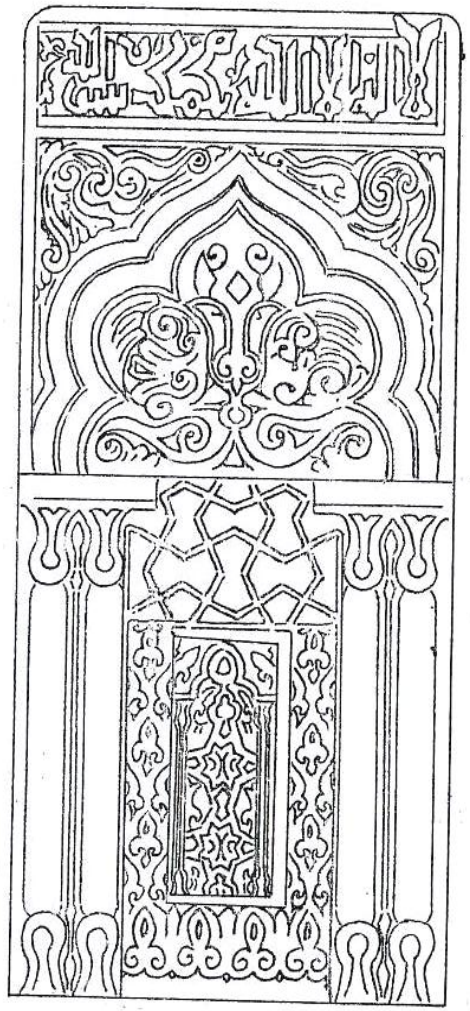

الرسم (٤) تخطيط محراب جامع الجويجاتي في الموصل
حوالي القرن (٣هـ/ ٩م) تخطيط د.أحمد قاسم الجمعة

الرسم (٦) عن (شافعي)

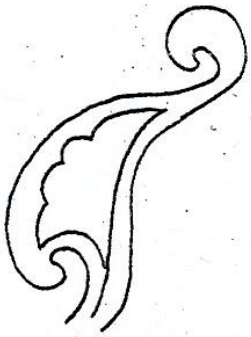

الرسم (٧) عن (الجمعة)

الرسم (٨) عن (الجمعة)

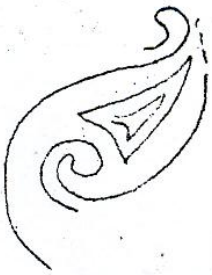

الرسم (٩) عن (الجمعة)

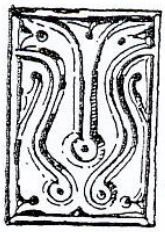

الرسم (١٠) عن (هرتسفلد)

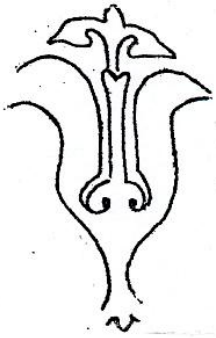

الرسم (١١) عن (الجمعة)

الرسم (١٢) عن (الجمعة)

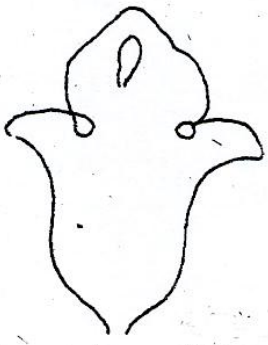

الرسم (١٣) عن (الجمعة)

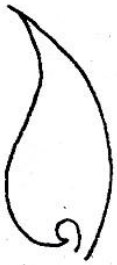

الرسم (١٤) عن (شافعي)

عناصر زخرفية من الموصل وسامراء للمقارنة

الرسم (١٥) عن (الجمعة)

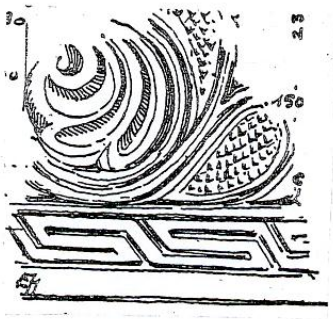

الرسم (١٦) عن (هرتسفلد)

الرسم (١٧) عن (الجمعة)

الرسم (١٨) عن (الجمعة)

الرسم (١٩) عن (الجمعة)

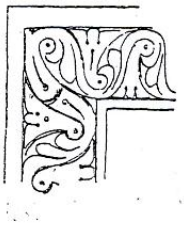

الرسم (٢٠) عن (هرتسفلد)

عناصر زخرفية من الموصل وسامراء للمقارنة

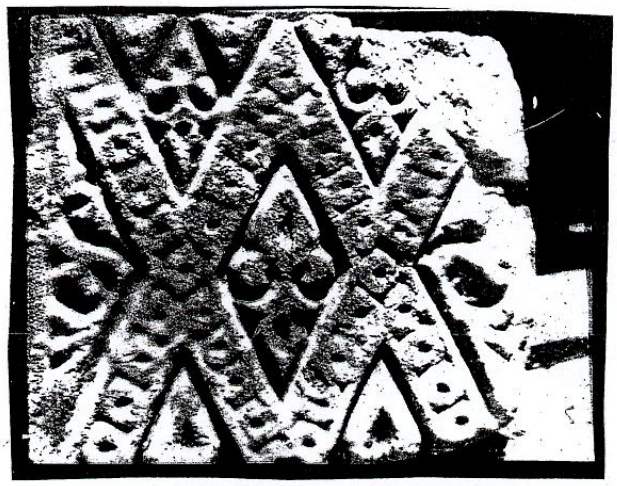

اللوحة (٢) قطعة رخامية ذات زخارف مشطوفة بفناء كنيسة مار أشعيا
حوالي القرن (٣هـ/ ٩م) تصوير (يوسف دنون)